أثرُ الصفات النفسيِّة في التأثُّر بفِكْر داعش

قراءةٌ في الاضطرابات النفسيَّة والمُمارسات السلُوكية
المُمهِّدة لانتماء بعض الشباب إلى داعش

بقلم
سلطان بن عبيد العَرَابي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ؛ وبعدُ

فمهما كانت أهميَّة مُناقشة الشُبهات العلميَّة والعمليَّة في توصيف حال الخوارج المُعاصرين ومن سلَك مسالك الغلو كالمُنتمين إلى داعش وغيرها ؛ إلاَّ إنَّ ثمَّة صفاتٍ نفسيَّةً خاطئةً كان لها الأثر الأسبق في التمهيد لقبول بعض شبابنا شُبهات الخوارج والاقتناع بها ، والتعصُّب لها ، وعدم قبول النقاش معهم فيها وحولها ، حتى أصبحت هذه الصفات النفسيَّة دعائم مُثبِّتةً لهذه الشُبهات التي غدَتْ بمنـــزلة المُسلَّمات الشرعيَّة ؛ التي يُرمى كُلُّ مَنْ حاول نقاشهم فيها بالرِدَّة عن الإسلام وبالكفر الأكبر !!

وقد أشار النبي ﷺ إلى جُملة هذه الصفات النفسيَّة ضمن إخباره عن الخوارج ؛ كالاستعجال في الحُكم على الوقائع والأحداث والأشخاص ، والجُرأة على التخطئة ، والتأثُّر بكلام الناس في القضايا العامَّة دون تثبُّت ، وصِغَرُ السِنِّ ، وعدم رجاحة العقل إلى درجة السفاهة ، حيث روى بعض هذه الأحاديث - التي جاء فيها وصف الخوارج من جهة الصفات النفسيَّة - الإمام البخاري في صحيحه ، وروى أكثرها الإمام مسلم رحمهما الله جميعاً .

فأمَّا صفة الاستعجال في الحُكم على الوقائع والأحداث والأشخاص والجُرأة على التخطئة ؛ فقد جاء ذلك في قصة ذي الخويصرة عند البخاري ومُسلم في صحيحيْهما ؛ من حديث أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه ، وفيه أنَّ ذا الخويصرة قال للنبي ﷺ بعدما قَسَمَ بعض المـــال والذهب على بعض

الصحابة ﵃ : (يا محمد ؛ اعْدِلْ) ، وفي رواية أنَّه قال : (إنَّ هذه لَقِسمةٌ ما عُدِلَ فيها ، وما أُريد فيها وجه الله) !!

وأمَّا صفة التأثُّر بكلام الناس في القضايا العامَّة دون تثبُّت ؛ فقد جاء ذلك عند البخاري ومسلم في صحيحيْهما من حديث أبي سعيدٍ الخُدري ﵁ ، وفيه أنَّ استعجال ذي الخويصرة في الحُكم والجُرأة على التخطئة جاء بعدما رأى غضب قُريشٍ من قِسْمَة رسول الله ﷺ حيث قالوا : (أيُعطي صناديد نجدٍ ويَدعُنا ؟) ؛ فبيَّن لهم النبي ﷺ دون أن يحكم عليهم بما حَكَمَ على الرجل الذي اتَّهمه ﷺ بعدم العدل من خلال ما سمعه ورآه من غضب بعض قريش ممن لم يفهم مُراد النبي ﷺ ، والذي قال فيه : (إنِّي فعلتُ ذلك لأتألَّفهم).

وأمَّا وصْفُ النبي ﷺ للخوارج بأنهم صِغار السنِّ والعقول ؛ فقد روى ذلك مسلمٌ في صحيحه من حديث سويْد بن غَفَلَة عن علي بن أبي طالب ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (سيخرج في آخر الزمان قومٌ أحداث الأسنـــان ، سُفهاء الأحلام ...) .

ومن مجموع ما ورد في الأحاديث الصحيحة حول صفات الخوارج النفسيَّة ، وعبر قراءة سريعةٍ للمعالم الشخصيَّة عند بعض شبابنا الذين تورَّطوا في الغلو ؛ كان الكلام عن الصفات النفسيَّة السيئة والمُمارسات السلوكيَّة الخاطئة من الأهميَّة بمكان ، ولا أقصدُ من إلقاء الضوء عليها هنا أن يكون كلاماً علمياً صِرْفاً ، بل هي قراءةٌ غير مُتكلِّفة في هذه الصفات

من خلال واقع بعض شبابنا ممن درسوا في مدارسنا ، وعاشوا بيننا وفي مُجتمعاتنا ، والتي كان للغفلة عن مُتابعة أخطائهم السلوكيَّة وعلاجها علاجاً تربوياً ونفسياً ، وتقصير بعض الآباء والأُمَّهات والمُربِّين ما جعل منهم شخصيَّاتٍ تقبل العنف وتميلُ إلى الغلو ، ويُمكن إجمال هذه الصفات النفسية السيئة والمُمارسات السلوكيَّة الخاطئة على النحو الآتي :

١- سماع الانتقاد في المجالس :

وأعني بسماع الانتقاد في المجالس هو ذلكم الحديث الذي يدور في بعض المجالس من أخطاء يسمعون بها أو يرونها في وسائل الإعلام أو حتى في الشوارع والدوائر الحكومية ، وما يحصل من بعض المسؤولين وبعض العسكريين في الشرطة والجوازات - مثلاً — من تجاوزاتٍ وأخطاء هي في كثيرٍ من الأحيان فرديَّةٌ ليست مقصودة ؛ فتجدُ بعض الناس والآباء والمُربِّين في بعض المجالس يتناول هذه الأخطاء بالنقد السلبي والتذمُّر والتسخُّط دون أن يكون لنقدهم وتخطئتهم أي أثرٍ في التغيير الإيجابي ، بل هو فقط ؛ تنفيسٌ بسبب الاحتقانات ذات الصبغة العموميَّة المُتسرِّعة ، ومثل هذه المجالس لا تخلو من وجود بعض الشباب من صغار السن والمُراهقين ، بعضهم ظاهره الاستقامة ، وكثير منهم هم من عامَّة الشباب الذين يُوجد عندهم بعض التقصير ، فتتراكم ثقافة الانتقاد والثلب والتخطئة في نفس هذا الشاب ، فينشأ عليها دون وعي ، حتى إذا ما تكاملت ضمائم الغلو في نفسه تفاجأ المُجتمع بتكفير القريب لقريبه واستباحة الدماء المعصومة !!

ولاشكَّ أنَّ سلوك طريقة النقد المُنفلِت غير الإيجابي والذي يحمل معه الكراهيةَ والتسخُّط وعدم رؤية نِعِمِ الله الحاضرة وغياب عواقب الأمور هو بذاته من الأمراض والآفات النفسيَّة المُنتشرة في بعض المجالس وللأسف .

٢- العنف ، ومُحاولة إلحاق الضرر بالآخرين :

بعض الشباب الذين تأثَّروا بفكر داعش وتهافتوا عليه عاشوا في حياتهم بعض العُنف الأُسري ، أو تربَّوْا على العُنف في الأقول والأفعال من باب الرُّجُولة وعدم الضعف ، وأنه لا بُدَّ من أخْذ الحق باليد ، فلا تسمح للناس أن يعتدوا عليك .. إلى آخر تلك العادات التي يزرعها بعض الآباء في نفوس أبنائهم وهم لا يشعرون ، وهذه المعاني وإن كانت في أصلها مطلوبةً من باب القوة وعدم الضعف إلاَّ أنَّ التربية على حُسْن الخُلُق ، ومُقابلة السيئة بالحسنة ، واجتناب رفقاء السوء ومواطن الريبة كانت هي الأجدرَ والأنفع ، ونصوص القرآن والسُنَّة ظاهرة في هذا الشأن .

وأعرفُ من بعض شبابنا ممَّن تربَّى على العُنف يحملُ السكين في جيبه للدفاع عن نفسه ، وبعضهم العصا الغليظة في سيارته ، وهو في نفسه يعيش صراعاً نفسياً يفترض الظنَّ السيء في كل من أخطأ عليه أنه يُريد إلحاق الضرر به ، أو الاعتداء عليه ؛ حتى إنَّ بعض الشباب الذين التحقوا مُؤخَّراً بداعش كان قبلها بسنواتٍ لا يُبالي بالآخرين أثناء قيادته للسيارة ؛ حتى إنه ذات مرَّةْ كان في تنافسٍ في الطريق مع سيارةٍ أُخرى ليس بينهما سابق معرفة ، فما كان منه إلاَّ أن صدمه وجعله يرتطم بالرصيف وعمود

الكهرباء ؛ كل ذلك إرضاءً لسلوك العُنف في نفسه ، وانتصاراً لترتبيته التي نشأ عليها !!

٣- العناد :

بعض المُتأثِّرين بداعش أصحاب عنادٍ ، لا يقبلون النُّصح ، ولا يُرضيهم الاعتذار ، ولا يهتمُّون بالتوجيه ، ولا يُفكِّرون في العواقب ، عاشوا حياهم قبل اعتناق هذا الفِكْر المُنحرف في جوٍّ أُسريٍّ مشحونٍ بالعناد وعدم اللِّين ، حتى أصبحت شخصيَّاهم ذات طابع عنادي ؛ ففقدوا التوجيه لهم مُنذ نعومة أظفارهم ، وحُرِموا ترشيد هذا العناد لكي يكونوا من أصحاب الطموح والتطلُّع إلى أعلى المراتب العلميَّة والخُلُوقيَّة !!

هذا العناد جعل من بعض الشباب صخرةً صلبة لا ينفع معها شيء ، فلا يقبل الحق ولو كان واضحاً ، حتى النقاش العلمي والعقلي بالحُجَّة والبرهان يرفضه عناداً منه ، وقد ناقش بعض طلبة العلم أحد هؤلاء الشباب في غلو داعش وأهميَّة الرجوع إلى كلام علماء الأُمَّة ؛ فما كان منه إلاَّ أن رمى بكلام ابن تيمية وابن القيِّم وابن باز وابن عثيمين - رحمهم الله - عرْض الحائط ، وأسقط مكانتهم من نفسه بعناده ، وأبدلهم بمجاهيل لا يُعرَفون أبداً !!

٤- الوساس القهري :

وهذه الصفة أو الآفة وإن كانت مَرَضيَّة إلاَّ أنها صفةٌ سيئة وسلوكٌ خاطئٌ وصل إليه بعض الشباب بسبب الغلو والمُبالغة ؛ والعجيب أنَّ التضييق على النفس بالسير مع الوسواس القهري أورث عند بعضهم انفلاتاً في الجهة الأُخرى ؛ فهو يحتاط لنفسه عند قضاء حاجته ، ويُبالغ في إسباغ الوضوء استعداداً لصلاته ، ويسأل عن حركات أمعاء بطنه أثناء الصلاة هل هي مما ينقض الوضوء أم لا ، ويتأمَّل في أعضائه هل استوفاها بالماء ؛ ومع كُلِّ هذا (الاحتياط المَرَضي) و (الوسواس القهري) إلاَّ أنَّه لا يحتاط في إخراج المُسلمين من دينهم ؛ بل يُسارع إلى تكفيرهم والحُكم بردَّتهم واستباحة الدماء !!

٥- التسرُّع والاندفاع :

التربية على الحِلْم وعدم الاستعجال والتفكير في العواقب والنظر في أثر الكلام قبل النطق به صفاتٌ أهملها بعض الآباء والأُمَّهات ، وتكاسل عن رعايتها بعض المُربِّين والمُعلِّمين ؛ والطفل أو الشاب الصغير بطبيعته عنده نوع تسرُّعٍ واندفاع ؛ ولا يُلام على ذلك إذا لم يجد من يزرع فيه ما يكبح جِماح هذه الصفات بطريقةٍ عمليَّة وصبرٍ عليه دون استعجال للثمرة .

هذا الشاب الذي تأثَّر بداعش وافقت الأحكام السريعة بالرِدَّة وإخراج الناس من الإسلام عنده صفاتٍ سيئةً كالتسرُّع والاندفاع ؛ فهو بعد أن

تعب من إنكار المُنكرات وجد أسرع الطُّرُق لإرضاء نفسه ؛ الحُكم على المُخالف له بالكفر والبراءة منه !!

وبعضهم يُبادر إلى إنكار كل مُنكرٍ بلسانه أو بيده ؛ حتى لو كان الرَّجُل مع زوجته ، فيحصل لهم من ردود أفعال الناس ما يجعله ينتصر لنفسه المُتسرِّعة المُندفعة ، فيبدأ بالتذمُّر من واقع الناس ، والانعزال عنهم ، ويُوافقه على ذلك بعض مَنْ هم على شاكلته ؛ ممن لم يتسلَّحوا بالعلم ، وعندهم تسرُّع واندفاع في شخصيَّاتهم ؛ وشبيه الشيء مُنجذبٌ إليه ؛ ومن هنا تبدأ رحلة البحث عن وسيلةٍ لمُقاومة فسادِ وانفلات الناس ؛ وليس ثَمَّة طريقةٌ أنجع من الجهاد - في نظرهم - ومُباينة الناس ومُناجزتهم والإنكار عليهم إلى حدِّ تكفيرهم وأنهم ليسوا على الإسلام الصحيح !!

٦- عدم احترام الآخرين :

تعوَّد بعض الشباب مما يرى من واقعه الاجتماعي والأُسري عدم الاهتمام بمشاعر الناس ، أن يرمي بالكلمة الجارحة في وجوههم ، ويلمز من خالفه أو خالف أسرته وواقعه الاجتماعي ؛ فالغيبة والنميمة واللَّمز وسائر الصفات السيئة التي تربى عليها ، وسمع والده أو أقاربه يتفكَّهون بها ؛ هي التي جعلته لا يُقيم للأخلاق وزناً في تعامله مع الناس عموماً ؛ في مدرسته ، وفي جامعته ، وفي مكان عمله ؛ وبالتالي كانت هذه الصفة بالغة الخطورة في عدم احترام الحقوق الدينيَّة للناس مع عصمة أمـــوالهم وأنفسهم وأعراضهم !!

٧- الكذب :

وهو أحد الأخلاق السيئة التي قد يتربى عليها الشاب من صِغَره ؛ فقد يرى من حوله يكذبون ، فينشأ على الكذب دون نكير ، حتى بعد أن أكرمه الله بالهداية ما زال يُمارس الكذب ، بحُجَّة إخفاء تفاصيل ذهابه وإيابه عن أهله وإخوانه ؛ فصار الكذب مُمهِّداً لتوظيفه في الغلو والانحراف الفكري بسهولة ، ولو تربَّى على الصدق في أقواله وأفعاله لوجد مشقَّة في الكذب مهما كانت مصلحته !!

إذن ؛ فصفة الكذب جعلت من بعض الشباب الذين تأثَّروا بالغلو الداعشي يُبالغون في توصيف المُنكرات في المجتمع ، والمُبالغة دهليز الكذب ، وبعضهم يكذب على العلماء ، وبعضهم يبتر كلام الأئمَّة من سياقاته تأييداً للتكفير الذي يجدون فيه مُسترَاحاً لهم من تبعة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ..

٨- الملل وعدم اعتياد الانضباط :

قد نجد الشاب ملولاً في حياته ، لا يُحبُّ أن يتقيَّد بشيء ، ينام متى أراد ، يأكل في أي مكان ، يخرج من البيت ولا يعود إليه إلاَّ في ساعاتٍ مُتأخِّرة من الليل ، مرةً يحضر مجالس العلماء ، ثم لا يلبث طويلاً حتى يُزهِّده أصحابه في طلب العلم بحُجَّة أهميَّة الدعوة ، يرى في إنكار المُنكر تلبيةً للجانب الدعوي وينسى معه الأمر بالمعروف ، لا يحضر اجتماعات العائلة ، ولا يُهمُّه حضور مناسباتهم ؛ كل ذلك علامةٌ على الملل وعدم الانضباط

في شخصيَّته ؛ وشيئاً فشيئاً وجد بُغيته التي تُناسِبُ الانفلات في شخصيَّته ، في شبابٍ لهم نفس الطابع النفسي ، يسهرون كل ليلة ، يقومون الليل وينامون النهار حتى عن الصلاة المكتوبة ، ولما كان العلم الشرعي ثقيلاً ، وفَهْم ما ظاهره التعارض صعباً على من هذه حاله ؛ كان الجهاد ومُنابذة المُجتمع والحكم بتكفير كل من خالفهم مُوافقاً لصفاتهم النفسية المطبوعة بطابع الملل والميل إلى الانفلات !

٩- الانفراد بالرأي ، وعدم الاستشارة ، ونزعة الاستقلال :

بعضهم يرى أنه على صواب دائماً ، غرورٌ في أثواب الشجاعة في الرأي والثقة بالنفس ، لا يستشير أحداً مهما كان ، يُحبُّ أن يكون مُستقلاًّ بآرائه وتصرُّفاته ومواقفه وقراراته ؛ يَشِبُّ على هذه الاعوجاج ثم ينقضه بتبعيَّة فكريَّة غالية ، جعلت من بعضهم أنه يقبل كلام المجهول ويردُّ كلام الثقات ، يدَّعي الاستقلال وهو المُعظِّم لكلام الغُلاة ، يستشير من وافقه في غلوِّه ويترك من خالفه ولو كان أقرب قريبٍ له ؛ كل هذا بسبب تلك الصفات السيئة التي كان ظاهرها التفرُّدَ وقوَّة الشخصيَّة ، وهكذا كل شيء يتجاوز فيه المرء حدَّه يُورِثه المُناقضة ولا بُدَّ !!

١٠- الجُرأة على التخطئة وإصدار الأحكام الكبيرة :

تعوَّد أن يردَّ على كل أحدٍ منذ صِغَرِه ، لا يُفكِّر في حقيقة ما يراه خطأً قبل الحُكم عليه ، لا يكفيه الأحكام المُحدَّدة لكل خطأ ، بل يُلحقها بأوصافٍ حُكميَّة لا تسلم من النيْل من عِرْض من أخطأ ؛ بدأت الجُرأة معه

بتخطئة بعض أفراد القبيلة في أمور اجتماعيَّة خاصة ، يسمع من التحامل وتحميل الآخرين بعض الأخطاء الشيء الكثير ؛ فانطلق لسانه في تخطئة كل أحد ، في بعض المرَّات حَكَمَ على نفسه بأن جميع صلواته التي صلاَّها غير صحيحة ، ومرَّةً حَكَمَ على نفسه بأنه غير مؤمنٍ بالله بسبب عدم تحقيقه التوحيد كما ينبغي !!

وبعد مُعايشة إنكار المُنكرات حَكَمَ على كل من أبى وأصرَّ على معصيته أنه كافرٌ بالله ؛ لأنَّه غير مُعظِّم لأوامر الله ، ومن لم يُعظِّم أوامر الله فليس بمُعظِّم لله جلَّ جلاله !!

هذه الصفة السيئة والمُمارسة الخاطئة حصلت في وقتٍ مُبكِّرٍ من حياته ؛ كانت لا تتعدَّى النظرة الاجتماعية في مُحيطه الأُسري فقط ؛ لكنَّها بسبب إهمالها وعدم تهذيبها جعلته يحكم بأحكامٍ لو اجتمع لها أهل بدرٍ لتورَّعوا عنها ..

وبعدُ : فهذه صفاتٌ سيئة ، وسلوكياتٌ خاطئة ؛ كان للنائحة الثَّكْلَى فيها أكبر حظٍّ من المُستأجَرَة ، وليس المُخبَرُ كالمُعاين ؛ وهي وقفات سريعة لم أقصد البسط والشرح فيها فضلاً عن البحث العلمي والنفسي المُتخصِّص ؛ ولكنِّي أحببتُ المُشاركة في صدِّ عادية الغلو عن شبابنا قدر المُستطاع .